عشاق

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «موريس دونيه»

ما رأيك في كاتب يعلمك ولا يؤلمك؟ يبعث في نفسك العواطف المختلفة قوة وضعفًا المتباينة قسوة ولينًا دون أنْ يشتد لذلك اضطرابك أو يعظم له تأثرك، ما رأيك في كاتب يبسط لك آلام النفس الإنسانية، وما يعبث بها من حسرات دون أنْ يضطر عينيك إلى أنْ تدمعا ودون أنْ يضطر قلبك إلى أنْ يخفق؟ وهو مع ذلك يبلغ منك ما يبلغه الكاتب المؤثر الذي يعبث بالقلب ويستبيح العبرات، هذا الكاتب الهادئ المبتسم الذي يمر بك على ألوان العواطف وضروب التأثر، ويشعرك بها وأنت مثله هادئ مبتسم هو «موريس دونيه» الذي أريد أنْ أحدثك اليوم عن قصة من قصصه.

كاتب مبتسم أبدًا، ولكنه متأثر ومؤثر أبدًا، ولقد تأخذني الحيرة، وما أشك في أنها تأخذك أيضًا حينما أريد أو تريد أنْ نتفهم كيف يستطيع هذا الكاتب أنْ يجمع بين هاتين الخصلتين، فيحزنك ويسرك في وقت واحد، أو هو يستطيع خيرًا من ذلك، فلا يحزنك ولا يسرك، وإنما يعلقك بين الحزن والسرور، فيرسم على وجهك ابتسامة خالصة صريحة مضيئة، ويلقي على نفسك ستارًا من الكآبة مؤثرًا أشد التأثير، ولكنه في الوقت نفسه خفيف لطيف شفاف.

كنت في هذه الحال وأنا أقرأ هذه القصة، ولست أخفي عليك أني ترددت ترددًا شديدًا في اتخاذها موضوعًا لحديث اليوم، فهي تخالف ما ألفنا من الأخلاق والعادات والأوضاع والأحاديث مخالفة شديدة، وكنت أخشى أنْ أوذي غير واحد من القرَّاء إنْ عرضت لها فلخصتها وفصلت ما فيها، ولكنها في الوقت نفسه غنية، خصبة، دقيقة، رقيقة، تستحق

العناية وتصلح موضوعًا للحديث، هي تخالف ما ألفنا، وأي قصة من قصص التمثيل لا تخالف ما ألفنا على نحو من الأنحاء! وأي لون من ألوان الأدب الأجنبيِّ يلائم من كل وجه ما ألفنا من ألوان الأدب العربي وما ورثنا من خلق وعادة! نحن بين اثنتين؛ إما أنْ نتشجع ونقبل الأدب الأجنبي على علاته فندرسه، لا لأنه يلائم آدابنا وعاداتنا وأخلاقنا؛ بل لأنه جدير بالقياس إلينا مخالف لما ألفنا ولما ورثنا، وإما أنْ نكتفي بما عندنا فلا ننفع ولا ننتفع، وأنا أعترف بأني أؤثر الأولى على الثانية، وأحتمل في غير ضعف ولا وهن تبعات اللوم الذي وجهه ويوجهه وسيوجهه إليَّ كثير من الناس، وربما وجدت في هذا اللوم البريء لذة ليست أقل أثرًا في نفسي من لذة الثناء والتشجيع.

هذه القصة مخالفة — كما قلت — لما ألفا ولما ورثنا؛ لأن موضوعها في نفسه غريب بالقياس إلينا كما سترى، وهي في الوقت نفسه مخالفة لما عودتك من القصص إلى الآن، فليس فيها عاطفة عنيفة تهزك هزًّا، وليس فيها تأثير قوي، وهي لا تنتهي بموت محزن، ولا بانتصار سارٍّ، وإنما تجري من أولها إلى آخرها هادئة مطردة، كما يجري النهر الذي لا تعبث به الزوابع ولا الأنواء، وربما اضطرب النسيم من حين إلى حين، فظهرت على صفحته موجات صغار لا يلحظها إلا الملتفت المتأمل، كذلك تقع هذه القصة ولا يكاد يشعر بها أحد من الذين يحيطون بأبطالها إلا فردًا واحدًا ملتفتًا شديد الالتفات، متأملًا قوي التأمل، ولا يفرض إنسان أنه أهل للالتفات أو التأمل؛ لأنه طفل لم يبلغ العاشرة من عمره بعد.

ولكنه يحب أمه، فهو يلتفت إلى حياتها ويتأمل في وقائعها، ويشعر من تفصيلها بما لا يشعر به أحد غيره.

ولأعرض عليك موضوع القصة في أول هذا البحث، وإنْ كان الكاتب لم يعرضه إلا في آخر القصة؛ لأني أحرص أشد الحرص على أنْ تتجنب التعميم والخطأ في الحكم، وعلى ألا تتورط في هذا الخطأ الشائع، فتحكم على الصحيح بأعراض المريض، وعلى المطرد بخصائص الشيء النادر.

نساء هذه القصة جميعًا لسن من النساء الشريفات اللاتي تمنحهن القوانين والأخلاق هذا اللقب، وهن لسن من المومسات اللاتي تعود الناس أنْ يسموهن كذلك، وإنما هن في منزلة بين بين، تعرفها البلاد المتحضرة المتأثرة بضروب الترف وألوان اللذة، والمضطربة بين المحافظة على القديم والاندفاع في سبيل الجديد، هن في منزلة بين بين؛ لسن زوجات،

ولكنهن مستهترات، قد اتخذن الأخلاء والأخدان، وعشن معهم عيشة الزوجات مع الأزواج، واجتهدن الاجتهاد كله في ألا يعلم الناس من سيرتهن الحقيقية شيئًا، فهن يتجنبن الأسر الشرعية حتى لا يظهر عليهن فضل الزوجات الشرعيات، ولا يعرف الناس مكانهن من مخالفة الخلق والقانون، وهن يتجنبن فتيات العبث واللذة مخافة أنْ يختلطن بهن فينالهن ما يتجنبن من سوء، لسن زوجات، ولكنهن أمهات، لهن أبناء وبنات، لم يولدوا لآباء شرعيين، ولكن أمهاتهم يحرصن كل الحرص على ألا ينالهم من ذلك ضرر ولا مشقة، يردن أنْ يربينهم كما تربي الأم الشرعية ابنها الشرعي، ويردن أنْ يزوجنهم ويشيدن مستقبلهم، كما تفعل الأسر الشرعية بأبنائها، فهن مضطرات إلى ضروب من الحياة فيها شدة وعنف، وفيها ضيق واحتمال للمكروه، وهن يتعارفن ويتآلفن ويتواضعن على شيء من النظام الخلقي يمتاز من أخلاق غيرهن من النساء، ويسيطر عليه حب الأبناء والبنات والتضحية بكل شيء في سبيله.

لن ترى في هذه القصة امرأة إلا وهي من هذه الطبقة، فأما الرجال فهم بين اثنين: شاب يلهو ولما يبلغ من السن ولا من المركز ما يمكن من الاستقرار إلى الحياة الشرعية واتخاذ الأسرة، ورجل اتخذ لنفسه أسرة، ولكنه لم يوفق في حياته المنزلية لما كان يرجو من سعادة وطمأنينة، وكلا الرجلين لا يعبث إيثارًا للعبث، ولا يلذ حرصًا على اللذة، وإنما التمس السعادة من طريقها المشروعة فلم يوفق لها، فهو يلتمسها من طرق أخرى ملتوية، وإذن ففيه شيء من الجد، وفيه شيء من الوفاء، فهو يحب صاحبته ويفي لها، وهو في الوقت نفسه يعترف بابنه أو بنته ويلحق نسبهما به.

أظنك الآن قد استطعت أنْ تتبين هذه الطبقة التي أراد الكاتب أنْ يبحث من بين أفرادها عن أبطال قصته، وأظنك توافقني على أنَّ البحث عن هذه الطبقة وما لها من خلق وعادة ممتع، لا يخلو من لذة ونفع، فلنتجاوز هذه الطبقة من وجهتها العامة لنبحث مع الكاتب عن أبطال هذه القصة الذين هم من أفراد هذه الطبقة.

ولست أقدم إليك من أبطال هذه القصة إلا أربعة، رجلين وامرأتين، فأما أول الرجلين فشيخ متقدم في السن هو «الكونت رويزو» من أشراف الفرنسيين، وأشدهم حرصًا على مذهب المحافظين في السياسة وفي الدين وفي الأخلاق والعادات، وهو ملكي مسرف في الملكية، يأتمر من حين إلى حين لإعادة الملك إلى عرش فرنسا، وهو متشدد فيما توارث الناس من خلق ودين، يكره الطلاق وينفر منه نفورًا شديدًا، ويحتمل من زوجه ما لا يحتمل الرجل الكريم دون أنْ يفكر في الطلاق أو يميل إليه، وهو على محافظته هذه رجل

ذكيٌّ قوي الذكاء، وهو مع هذا فيلسوف، قد فهم الحياة فاطمأن إليها، ولم ينكر من أمرها شيئًا، واجتهد في أنْ يوفق بين فلسفته وبين مذهبه في المحافظة، هو مثلًا مقتنع بأن امرأته تكرهه وتخونه، وتسرف في خيانته وتجعله هزؤًا بين الناس، ولكنه يكره الطلاق، وهو في الوقت نفسه يكره أنْ يفرض الناس أنه مغفل، وإذن فهو لا يتكلف أنْ يجهل سيرة امرأته، وإنما يتحدث عنها وعن عشاقها وعن مجونها في هدوء وسخرية مبتسمًا، لا يتحدث بذلك إلى الناس جميعًا، وإنما يتحدث به إلى أخصائه حتى لا يفرضوا فيه الغفلة، وربما اشترك مع أحد أصدقائه في شعر يهزأ فيه بخليل من أخلاء امرأته، ثم روى هذا الشعر لصديق آخر من أصدقائه مبتسمًا مزدريًا، ثم هو يعلم أنَّ القضاء قد كتب عليه أنْ يكون مخدوعًا طول حياته، ولا شك في أنه قد ألم لذلك وشقي به، ولكنه يعرف كيف يحتمل الألم ويبسم للشقاء، فهو يتحدث عن ذلك في لهجة الساخر المزدري دون غلوٍّ ولا إسراف، فيقول إنه كان شابًّا جميل الطلعة، حسن الخلق، وكان يحب فتاة، وكانت هذه الفتاة تحبه، ولكنها مع ذلك خانته وخانته، حين كان يكتسب في الحرب وسام الأبطال، حين كان يعالج في المستشفى، وقد أصابت ذراعه رصاصة، وأصابت ساقه ضربة السيف، ثم تزوج، وكان جميلًا، عظيم الثروة، عظيم الاسم، رفيع المكانة، فخانته زوجته وما زالت تخونه شابًّا وكهلًا وشيخًا، وهو يتحدث إلى صاحبته، فينبئها بأنه يثق بها الثقة كلها، فإذا أظهرت صاحبته اغتباطها لذلك أظهر لها أنه ليس مغفلًا، وقال: إنه يثق بأنها إذا أرادت أنْ تخونه فلن تجعله هزؤًا بين الناس، بل هي ستتستر وتتكتم حتى لا يظهر الناس من خيانتها على شيء، ثم هو إلى هذا كله يسخر من قوانين الاجتماع وأخلاق الناس، ويرى أنَّ الحق على كل إنسان أنْ يؤمن بأن خيانة المرأة للرجل هي القانون الطبيعي، وأنَّ الناس يجب أنْ يستعدوا لها كما يستعدون للموت، وربما كان من الحق على المدارس أنْ تأخذ الشبان بالتفكير في ذلك وتوطين النفس عليه، كما تأخذهم بالتفكير في الموت ورياضة النفس على انتظاره، وهو على هذا كله طيب القلب، ذكي النفس، وَوَفِيٌّ إذا أحب، رفيق بمن يحب.

أما الرجل الثاني فهو «فيتويل» شاب في الثالثة أو الرابعة والثلاثين من عمره، ليس عظيم الثروة، ولكن له من المال ما يمكنه من الحياة الرقيقة المستقلة، وهو قوي الشعور دقيقه، حاد الحس مترفه، يميل إلى اللذة ميلًا شديدًا، ولكنه في الوقت نفسه يطمح إلى الحب القويِّ الصحيح، وقد ذاق ألوان اللذة حتى سئمها، ولكن سأمه هذا لا يمنعه أنْ يطلب المزيد منها، وهو لا يريد أنْ يتزوج؛ لأنه جرب كثيرًا من النساء فلم تشجعه التجربة

على أنْ يفكر في الزواج، فإذا نصح له ناصح بأن يقصر عن العبث أجاب: كلا؛ إنَّ قلبي فارغ، ولكنه غير متعب، فهو إذن لا يكره اللذة، وإنما يريد أنْ يبحث عن المثل الأعلى فيها، وهو شديد الغيرة، ولكنه يخفي ذلك حتى على نفسه، وهو ذكيٌّ واسع العقل، ولولا اشتغاله باللذات لاستطاع أنْ يكون رجلًا ذا خطر في الحياة العلمية العملية.

أما المرأتان فإحداهما «كلودين» قد توسطت في عمرها لم تبلغ الأربعين ولكنها تجاوزت الثلاثين، كانت في أول أمرها تلعب في دور التمثيل، ثم كرهت هذه الحياة فانقطعت إلى حياة منظمة، وهي قوية الإرادة جدًّا، لا تذعن للأمر ولا تخضع للسلطة، وهي قوية العواطف جدًّا، إذا أحبت لم تحتمل شريكًا في الحب، كما أنها لا تقنع من الحب بالشيء القليل، وهي جميلة ساحرة ذكية، ولكن حظها من التعليم قليل، وهي فوق هذا كله أُمٌّ، تحب ابنتها، وتؤثرها على كل شيء وعلى كل إنسان.

وأما المرأة الأخرى فهي «هنرييت جامين» دون الثلاثين، جميلة خلابة، ولكنها ساذجة، خفيفة الروح، حلوة النفس، تخلب بسذاجتها وجهلها أكثر مما تخلب بجمالها وسحر عينيها، فقدت صديقها الذي كانت تحبه حبًّا شديدًا، وفقدته بعد أنْ أضاع ثروته وثروتها فقتل نفسه، وأخذت تختلف إلى قبره كل أسبوع تحمل الأزهار، فلقيت عند القبور رجلًا شديد الحزن، يحمل الأزهار إلى قبر امرأة، ويبكي عند هذا القبر بكاء الجزع، فسألت عنه حارسًا من الحرس، فأنبأها بأنه من أغنياء باريس، فقد امرأته فهو يزور قبرها ويحمل إليه الأزهار في كل يوم، فلما أصبحت لم تنتظر الأسبوع كما كانت تفعل، وإنما غدت إلى قبر صاحبها في الميعاد الذي يغدو فيه الرجل إلى قبر امرأته، فبكت وبكى الرجل، ثم عرضت له فتحدثت إليه، فاطمأن إليها، فعزته عن امرأته وعزاها عن صاحبها، وكانت بينهما صلة، فهما يعيشان معًا، وهي تقص ذلك على صاحبتها «كلودين» في سذاجة، كما تقص عليها سقوط المطر بعد أنْ كان الجو صحوًا، فإذا رأت شيئًا من الإنكار أو الميل إلى الضحك، فسرت موقفها هذا، وعللته بأنها أم تحب ابنتها وتريد أنْ تنشئها تنشيئًا حسنًا، وأنْ تجمع لها مهرًا صالحًا لتستطيع الفتاة أنْ تختار زوجها كما تهوى، وهي تريد أنْ تكون ابنتها سعيدة في الزواج، وويل لزوج ابنتها إنْ خان امرأته! إذن لأقتلنه! فإذا سئلت ماذا تصنع إذا كانت ابنتها هي الخائنة! أجابت مبتسمة: هذا شيء آخر! إذن فسأعينها على الخيانة.

هؤلاء هم الأشخاص الذين أردت أنْ أقدمهم إليك من أشخاص هذه القصة، وقد أطلت في تصويرهم وتعمدت الإطالة؛ لأن صورهم هي أشد ما في القصة نفعًا، وليس من

سبيل إلى فهم هذه القصة إذا لم تتبين هؤلاء الأشخاص على هذا الوجه، على أن تحليل القصة بعد ذلك لن يكون طويلًا.

نحن في الفصل الأول، في مدينة باريس، في قصر فخم يقوم في ميدان الولايات المتحدة، وتقيم في هذا القصر «كلودين» التي قدمت لك وصفها، وهي صديقة «للكونت دي رويزي»، وقد أنزلها في هذا القصر وضمن لها فيه حياة سعيدة مترفة، وهي في هذا اليوم قد دعت إلى هذا القصر طائفة من صديقاتها، وأقامت فيه عيدًا للأطفال، فأقبل صديقاتها ومعهن أبناؤهن وبناتهن، وأقبل معهن نفر من الرجال والشبان، وانقضى العيد وأخذ المدعوون ينصرفون حتى لم يبقَ إلا «هنرييت جامين»، وما كادت تبدأ في الحديث معها حتى أقبل «فيتويل» فيستمر الحديث حينًا، وتفهم منه ما قدمت لك من أمر «هنرييت»، ثم تنصرف وتخلو«كلودين» إلى «فيتويل»، فيتحدثان، فإذا هي حديثة العهد بهذا الشاب، عرفته منذ حين قصير، وأقبل هذا الشاب يزورها لأول مرة، فتفهم من حديثهما ما قدمت لك من أخلاقهما، ولكنك لا تلبث أنْ تفهم شيئًا آخر، وهو أنَّ «فيتويل» يشعر بشيء من الحب لكلودين، فيتلطف لها، ويتوسل إليها في رفق وفي تلميح، وهي تشعر بشيء من الميل إليه، ولكنها تخفيه وتدافعه عن نفسها، والفتى يتكلف ضروبًا من الفتنة ليكسب عطف هذه المرأة؛ فهو يفلسف ويعرض خواطر غريبة في أخلاقه وفي أخلاق النساء، وفيما كان بينه وبينهن من صلة، وكلما عرض خاطرًا من خواطره أو رأيًا من آرائه ظهر بينه وبين هذه المرأة اتفاق غريب في طريقة الفهم والتفكير والحكم، وقد قرب بينهما كل شيء، ولم يبقَ إلا الاعتراف، وهو يلح، وهي تفر أمام هذا الإلحاح، على أنَّ دفاعها قد أخذ يضعف ويلين، ولكن «الكونت دي رويزي» قد أقبل، فتقدم إليه الشاب ويتعارف الرجلان.

ثم ينصرف الشاب، ويخلو الكونت إلى صاحبته، فإذا تحدثا فهمت من حديثهما كل ما قدمت لك في وصف هذا الشيخ، وفهمت أنَّ الشيخ قد أحب هذا الشاب ومال إليه؛ لأنه محافظ؛ ولأنه سجن في سبيل المحافظة، ثم ينصرف الكونت، ويترك صاحبته وحدها، ولا تكاد تخلو إلى نفسها حتى يدخل الخادم يحمل إليها كتابًا، فضته ونظرت فيه علمت أنَّ «فيتويل» قد كتب إليها لمجرد انصرافه من عندها يبعث إليها تذكرة للأوبرا، ويعرض عليها أنْ تصطحبه إنْ أرادت، فتغضب؛ لأنه أسرع وأسرف في الإلحاح، ثم تجيب بالرفض وترد التذكرة إلى صاحبها، وقد انتهى هذا الفصل، وعرفنا منه الأخلاق التي تميز هؤلاء الأشخاص جميعًا، وعرفنا منه أيضًا أنَّ بين «كلودين» و«فيتويل» حبًّا ناشئًا لا يمكن أنْ يضيع.

فإذا كان الفصل الثاني، فنحن في القصر نفسه، ولكن في غرفة النوم، وقد انتصف الليل ودقت الساعة الثانية من الصباح، ونحن في آخر السنة وفي فصل الشتاء، والثلج يتساقط من وراء النافذة، و«كلودين» قد خلت إلى صديقها الشيخ، وهما يتحدثان عن عشاء كانت «كلودين» قد قدمته إلى طائفة من أصدقائها، والكونت يثني على هذا العشاء ويثني على صاحبته، وهما يذكران المدعوين، فيذكر الكونت أنَّ «فيتويل» كان مشغولًا «بهنرييت جامين» التي كانت جارته على المائدة وتتكلف «كلودين» الإعراض عن ذلك، ثم تريد كلودين أنْ تتجرد من ثيابها لتستريح، ويعينها الشيخ على ذلك في حب وغزل، ولكنه لا يوفَّق لجهله بثياب النساء وفنون البدع في ذلك، فتدعو خادمها لتعينها، حتى إذا فرغت من ذلك أظهرت الاستعداد للنوم، وأظهر الشيخ الطمع فيما يطمع فيه في مثل هذه الساعة وهذا الحال، ولا سيما أنه مسافر غدًا إلى إيطاليا ليأتمر والجو بارد والثلج يتساقط، ولكنه لا يرى منها إلا فتورًا ونفورًا، وهو يحبها، وهو طيب القلب، فيذعن لما تريد ويقبلها لينصرف، فلا تكاد تطمئن إلى قبلته، ثم تحس أنَّ نفورها قد آذاه فترقُّ له وتعطف عليه وتودعه وداعًا حسنًا، وينصرف راضيًا محزونًا.

ولا يكاد ينصرف حتى تسرع إلى النافذة، فتفتحها وتقدم منها المصباح كأنها تشير إلى إنسان، وهي في الحق تشير إلى إنسان، فلم تكد تمضي لحظة حتى يقبل «فيتويل»، وكان ينتظر أمام الباب أنْ ينصرف الشيخ ليصعد هو إلى القصر، فتتلقاه ويكون بينهما خصام طويل لذيذ، ذلك أنَّ الحب الناشئ قد انتهى إلى غايته بعد ثلاثة أشهر، مضت على ذلك أشهر أخرى عاش فيها العاشقان عيشة لذيذة ولكنها مختلسة، فهما ينكران ويتكتمان، لا يريدان أنْ يظهر الشيخ على ما بينهما، فهما يحبان الشيخ والشيخ يحبهما، وهما لا يريدان أنْ يسيئا إليه، وهي بعد تذكر أنَّ الشيخ يثق بها ويثق بأنها لن تعرضه للعار، وهي لا تريد أنْ تعرضه للعار ولا للألم؛ لأنها تحبه وتشكر له جميله، ثم هو أبو ابنتها التي بلغت الثامنة من عمرها، تعيش مع صاحبها الشاب عيشة لذيذة مختلسة، ولكنها منغصة أيضًا، فهي شديدة الغيرة، تراقب صاحبها مراقبة شديدة، تسأله في كل يوم أنْ يقص عليها سيرته حين كان بعيدًا عنها، وهو يفعل فلا يهمل من حياته شيئًا مهما يكن تافهًا، وهو ليس أقل منها غيرة، فهو يكره أنْ تظهر الظرف للناس، وهو يكره بنوع خاص هذه الصلة بينها وبين الشيخ، ويؤذيه أنْ يختلس اللذة والحب، وألا يظهر في القصر في مثل هذه الساعة إلا إذا انصرف الشيخ، كلاهما شديد الغيرة، ولكن كليهما شديد الحب، وهل توجد الغيرة بدون الحب؟ يختصمان ثم يرضيان، وقد أحسا الجوع؛

لأنها لم تأكل حين كانت على المائدة، وإنما اشتغلت بمراقبة صاحبها، وهو لم يأكل وإنما اشتغل بمراقبتها، فليأكلا الآن، وهي تذهب فتحضر ما تجد من بقايا الطعام، فيأكلان ويشربان، ولكنهما لا يتجاوزان هذا إلى شيء آخر؛ لأنها متعبة، ولأنها — وذلك شيء نفهمه نحن — لا تستبيح لنفسها أنْ ترضى للشاب بما أبت على الشيخ منذ حين قصير، ينصرف الشاب، وقد اتفقا على أنْ يسافرا غدًا من باريس ليقضيا في الريف أيامًا ينتهزان فيها غياب الشيخ في إيطاليا.

فإذا كان الفصل الثالث، فقد مضت أشهر ونحن في بيت الشاب، وهو يتحدث إلى صديق له يزدري الحب والمحبين والنساء، ويعنى بالبحث عن الظواهر النفسية، وقد أقبل الشيخ فعاتب الشاب في رفق؛ لأنه وعده ووعد «كلودين» أنْ يلتقوا أمس ليتعشوا معًا، ثم يذهبوا إلى ملعب من ملاعب التمثيل ثم أخلف الوعد، فيعتذر الشاب بالنسيان ويطلب إليه الشيخ في رفق وسذاجة أنْ يزور «كلودين» وينصرف، فيتحدث الشاب إلى صديقه، وقد فهمنا من هذا الحديث أنه مغاضب لكلودين، يريد أنْ يسلو عنها، ويريد أنْ يسافر مساء اليوم ليغيب حينًا عن باريس، أما صاحبه فلا يصدقه بل يكذبه ويسخر منه، فعزمه على السلو ليس صادقًا، إذ لو كان صادقًا لما احتاج إلى الهرب، ولما امتنع من أنْ يرى صاحبته ويعلن إليها القطيعة، وتدخل «هنرييت جامين» فتخلو إلى الشاب، وتنبئه بأنها أقبلت من عند «كلودين» وأنَّ كلودين محزونة، وأنها في حال سيئة، وتتوسل إلى الشاب أنْ يزورها ويراضيها، فيظهر الشاب سخطًا شديدًا؛ لأن «كلودين» تُضيِّق عليه وتسرف في الغيرة، وتعتدي على حريته اعتداء متصلًا لا يطاق، ويعلن أنه مسافر، ولكنه سيكتب إلى كلودين كتابًا رقيقًا، فلا تكاد تنصرف هذه المرأة، ولا يكاد هو يأخذ في الكتابة حتى تدخل «كلودين»؛ لأنها كانت تنتظر صاحبتها أمام الباب، فلما علمت بعزمه على السفر لم تستطع صبرًا فصعدت إليه تترضاه، ولم يكد يراها حتى كان عتاب شديد، وحتى أخذ يطلب إليها مُلِحًّا عليها أنْ تترك الشيخ وتخلص له هو، وهنا موقف يبين لك عن خُلق هذه المرأة وعن خُلق أمثالها من أفراد هذه الطبقة، التي قدمت وصفها لك، ما لم أذكره في أول هذا الفصل هذا الخلق، هو شيء من الوفاء غريب لا عهد لك به، هي تحب الشاب وتؤثره على كل إنسان إلا ابنتها، وهي مستعدة للتضحية في سبيل هذا الحب بكل شيء إلا بهذا الشيخ، لا لأنه أبو ابنتها فحسب؛ بل لأنه رجل ضعيف قد وثق بها واطمأن إليها، وقد وجد عندها سعادة أعانته على احتمال الحياة، وهي لا تريد ولا تستطيع أنْ تسلبه

هذه السعادة، هي تخونه، ولكنه يجهل هذه الخيانة، وإذن فهو لا يألم لها، وهي تكره أنْ يألم، وتعلم أنه سيموت يوم تقطعه، وهي مستعدة لكل شيء إلا الجبن والنذالة، ومن الجبن والنذالة أنْ تتعمد الإساءة إلى هذا الشيخ الذي لم تلقَ منه إلا خيرًا.

أتعلم أنك إنْ أساء إليك إنسان لم تحجم عن الموت لتنتقم لنفسك متأثرًا بعاطفة الشرف التي تسيطر على الرجال؟ فاعلم أنَّ عندنا نحن النساء عاطفة تشبه عاطفة الشرف هذه وتحول بيننا وبين التورط في مثل هذه الدنية، أنا أضحي في سبيلك بكل شيء إلا هذا الشيخ! ويطمئن الفتى إلى ذلك، فهو يحبها ويحب منها هذا الوفاء، وهو ليس كغيره من العشاق الذين يأبون إلا الاستئثار السخيف بكل شيء، وإنما يكفيه أنْ يستأثر من صاحبته بحبها وحنانها وقدرتها على اللذة، وإذن فلن يسافر، وإذن فسيتصل ما بينهما من حب، وسينافقان إبقاء على هذا الشيخ.

فإذا كان الفصل الرابع فنحن في مدينة من مدن إيطاليا، وقد أقبل الليل وخلا العاشقان، وهما يتحدثان متأثرين تأثرًا شديدًا، يتجلدان ويتكلفان القوة والحزم؛ لأنهما قد أزمعا أمرًا عظيمًا، ذلك أنَّ أشهرًا قد مضت، فلم تزدد الغيرة بينهما إلا شدة، وأصبح الشاب لا يستطيع أنْ يحتمل هذا النفاق، ولا يرضى إلا أنْ تنقطع الصلة بين صاحبته وبين الشيخ، وهي لا تريد ذلك ولا تقبله، وإذن فقد اتفقا على أنْ يقطعا ما بينهما من حب، واستأذنت الشيخ في شهر تغيبه عنه فأذن لها، ومكثت هذا الشهر مع صاحبها خالصة له، ثم انقضى الشهر، ويريد الشاب أنْ يسافر إلى أقصى الأرض مع بعثة جغرافية، وستأتي العربة لتقله إلى المحطة بعد دقائق، فهما متأثران محزونان لهذا الفراق، وهي قد فقدت قوتها، وخيل إليها أنها لن تستطيع أنْ تحتمل هذا الفراق، وأنها تستطيع أنْ تهجر الشيخ لتبقى مع صاحبها، فتعرض عليه ذلك فيأبى؛ لأنه يعلم من أمرها عجزها عن الإساءة إلى هذا الرجل، وهي إنما تخطئ الآن حين تقدر أنها تستطيع هذه الإساءة، فلينقطع الحب بينهما، وحسبهما من هذه السعادة القوية التي ظفرا بها كل هذه الأشهر، وهو يعلم أنَّ هذا الفراق مؤلم، أليس يشعر بهذا الألم! أليس سيشعر به في أثناء سفره! ولكن لا بد من احتمال هذا الألم إذ لم يكن عنه منصرف، وهنا حوار قصير، ولكنه آية في الدقة والتعمق، هي جزعة ولكنها مقتنعة بأنها لن تستطيع أنْ تسيء إلى هذا الشيخ، وهي في الوقت نفسه لا تريد أنْ تنقطع الصلة بينها وبين الشاب، تريد أنْ تذكره أبدًا وأنْ يذكرها أبدًا، وأنْ يكون بينهما شيء مشترك في كل يوم؛ فتعرض عليه عهدًا وهو أنْ ينظر كل منهما إلى

نجم بعينه في ساعة بعينها من الليل، فهي ستجد في ذلك شيئًا من العزاء، وستعلم أنه ينظر إلى ما تنظر إليه في نفس الوقت الذي تنظر فيه إلى هذا النجم، فيجيبها: ولكن الليل سيظلك حينما يظلني النهار! فليس من الممكن أنْ ينظر أهل الأرض جميعًا في وقت بعينه إلى مكان بعينه من السماء.

وإذا هي دهشة؛ لأنها علمت ما لم تكن تعلم، وإذا هي تشعر بشيء من خيبة الأمل عظيم، وتلوم على أنه أظهرها على هذه الحقيقة العلمية القاسية، وقد أقبلت العربة وافترق العاشقان بعد حزن ولوعة.

فإذا كان الفصل الخامس، فقد مضى عام ونصف عام على هذا الفراق، ونحن في باريس في القصر الذي كنا فيه في الفصل الأول، وفي نفس المكان الذي كنا فيه في الفصل الأول من القصر، ولكن أشياء كثيرة قد تغيرت، فليس القصر قصر «كلودين»؛ لأنها باعته، وباعته لصديقتها «هنرييت جامين»، التي اشتدت الصلة بينها وبين صاحبها الذي لقيته عند القبر حتى اشترى لها هذا القصر وأنزلها فيه، وهي اليوم تحتفل أول مرة في قصرها الجديد، وقد دعت أصدقاءها وصديقاتها الذين رأيناهم في الفصل الأول، وهم جميعًا يعبثون ويلهون ويتبادلون أحاديث كلها مجون وعبث وتلميح إلى ما لا يصرح به، وهم جميعًا سعداء، إما بما يلقون في الحاضر، وإما بما يأملون في المستقبل، وقد انتحى اثنان ناحية من المكان، فهما هادئان يتحدثان في حزن مبتسم، وهما الشيخ وصاحبته «كلودين» يذكران هؤلاء الناس وسرورهم وابتهاجهم وما هم فيه مما يشبه الجنون، ثم تنظر فإذا «فيتويل» بين القوم، وإذا هو يقبل ليحيي «كلودين»، فيخلو إليها حينًا والقوم لاهون في الرقص والعبث، ويتحدث العاشقان فيما كان من أمرهما منذ ذلك الفراق، أما هو فلم ينسَ ولم ينقطع عن التفكير في صاحبته والحنان عليها، ولكنه مع ذلك تعزى، وتعزى بهذا البحث العلمي وبما اعترضه في طريقه من الأشياء والمناظر المختلفة، ومهما يكن عزاؤه فلن يستطيع أنْ يمحو من قلبه ذكرى يملؤها الحنان على تلك الأيام الماضية، وأما هي فقد تألمت وكأن ألمها شديدًا، فأصابها علل وأمراض عصبية، وأدركها الشيب كما أدركه، ولكنها تخفي شيبها في حين هو لا يخفيه، وقد جهل الناس جميعًا قصتها، ولم يشعروا منها بشيء إلا ابنتها الطفلة، فقد فطنت للقصة وعرفت دخيلتها، وأرادت أنْ تنتقم لأمها ففقأت عيني «فيتويل» في صورة كانت عندها، ثم يمضيان في الحديث.

أما هو فقد تعزى وما يزال يذكر صاحبته، ويحتفظ بهذه الفكرة، ولكنه سيتزوج، سيتزوج أختًا لرفيق له في البعثة الجغرافية لقيها في الهند الصينية، ورافقها في الطريق إلى باريس فرضيها زوجًا له.

ليست جميلة ولا خلابة ككلودين، ولكنها رءوم، وفيها قوة وإرادة وميل إلى العلم، فإذا نظرت كلودين إلى صورة الفتاة ابتسمت لها وأحبتها وهنأت صديقها في حزن ولكن في إخلاص، وتأثر هو بهذا الإخلاص وبهذا النوع من التضحية وأخذ يثني عليها ويرق لها، ولكنها هي أيضًا تعلن إليه أيضًا أنها ستتزوج، نعم ستتزوج ويكون الشيخ زوجها، فقد فرت امرأة الشيخ مع ضابط شاب، وأصبح الشيخ يستطيع الطلاق دون أنْ يخرج عن عاداته وآرائه، وقد فعل وعرض على «كلودين» أنْ تكون زوجه الشرعية، فترددت ثم قبلت، أليست تفكر في ابنتها! أليست تعطف على الشيخ في آخر أيامه! وقد باعت هذا القصر، وستترك باريس مع زوجها وابنتها، وسيخلون إلى حياة هادئة منظمة طاهرة في أعماق الريف، وهما في هذا الحديث إذ يقبل الراقصون اللاهون في ضجيجهم وعجيجهم، فيخفون علينا صوت هذين العاشقين اللذين يذكران الماضي ويتحدثان عن المستقبل، يخفون صوتهما فيغرق هذا الصوت، ويغرق صاحباه في ضجيج الحياة اللاهية العابثة، كما يغرق في هذا الضجيج كل شيء في كل يوم.

وكم من دون لهو الحياة وعبثها من أحاديث ليست أقل تأثيرًا ولا صدقًا من هذا الحديث!

مايو سنة ١٩٢٤